مبادرة

القراءة بالمجان

الكتاب: برائحة القهوة والبيتادين
الكاتب: شيماء محمود إبراهيم
رقم الإيداع: 25742/ 2019
ISBN:978-977-800-108-2
تصميم الغلاف: محمد عبد القوي مصيلحي

دار ليان للنشر والتوزيع
مدير النشر: فتحي المزين: 01282288056
Email: layanpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، وأي محاولة للطبع أو النشر بأي طريقة دون
موافقة كتابية يعرَّض صاحبها للمساءلة القانونية

شيماء محمود إبراهيم

برائحة القهوة والبيتادين

ةةةةة

لبان
للنشر
والتوزيع

إهداء

إلى روح زوجي الحبيب، ولكل الأحبة الراحلين
إلى كل من علَّمني حرفًا، أو غرس بداخلي قيمة سامية
إلى أمي وأبي، ومن تبقَّى من أصدقائي المخلصين
أهدي هذا الكتاب

إهداء خاص

إلى د. ربيع إبراهيم، ود. محمود سامي، وكل الأبطال الحقيقيين في الرواية وفي الواقع

لولاكم ما ظهر هذا الكتاب للنور. . تعلمت منكم الكثير، ولن أوفيكم حقكم مهما فعلت. . لَكُم مني جزيل الشكر.

يومٌ هادئ آخر من أيام قسم الطوارئ بالمستشفى.. حيث الأطباء والمرضى والمصابون جراء حالات الحوادث وتوقُّف القلب وهرولة الأطباء وطاقم التمريض في كل مكان..

حسنًا.. لا جديد إذًا..!!

أتسكع في ساحة طوارئ الاستقبال بعد يوم طويل مستمتعًا بكوني كائنًا خفيًّا غير مرئي..

لماذا أنا خفي؟!

لأنني جديد هنا بالطبع.. ظننت ذلك وضحًا..

هكذا طلاب الطب والأطباء حديثو التخرج؛ مسموحٌ لهم بالمراقبة من بعيد بشرط ألا يورِّطوا أنفسهم في المشاكل ويحاولوا قدر الإمكان تجنب القذائف الموجَّهة في مشاجرات الاستقبال الشهيرة.. " أنت مستجد" يجب أن تبقي خفيا قدر الإمكان..

هذا هو القانون!

هرولة وصياح، ثم..

"كود بلو أطفال.. كود بلو أطفال في الاستقبال"..

وال (Code blue) لمن لا يعرف هو نداء داخلي أو رسالة مشفَّرة يتم إطلاقها في المستشفى وتعني أن هناك مريضًا قد توقف قلبه في قسم استقبال الطوارئ.

يركض الأطباء مولين وجوههم شطر غرفة الرعاية الحرجة بينما يتردد الصوت المتوتر في جنبات المستشفى عبر مكبرات الصوت..

أحاول اللحاق بهم مترددًا خائر القوى..

شهدت منذ ساعة وفاة شاب فتيّ في ذات الغرفة.. حاول الأطباء إنعاشه بلا جدوى.. وبعد أن أعلنت الطبيبة وقت الوفاة غطوا وجهه وتركوه وخرجوا ببساطة.. لم يعد هناك ما يمكن عمله.. ورغم ذلك لم أستطع المغادرة..

فكرت في عائلته وذكرياته وأحلام كان في طريقه لتحقيقها..

كيف تستقبل أسرته خبر وفاته وهو بعد في الثلاثين من عمره؟! ضحكة ساخرة يتردد صداها في أعماقي.. هل تعني يا مسكين أنه إذا كان طاعنًا في السن لن يصعقوا لخبر وفاته؟!

يظل الفقد فقدًا والموت صدمة ومصيبة، سواء كان المتوفى شابًا صغيراً أو امرأة عجوزًا..

تُحدِّثُني نفسي.. لكنه ما زال صغيراً بالسن.. ترى هل كان يدري وهو يسعى وراء أحلامه أنه سيموت في هذا السن مخلفًا إياها وراءه؟!!

كان سَليما معافي حتى أسبوع مضى حسب رواية أقاربه.. لكن.. كان يجب عليه أن يتوقع أي شيء.. في الحقيقة يجب على كلٍّ منَّا توقُّع اقتراب الأجل في أي دقيقة..

وقبل أن أكمل مشاجرتي مع ذاتي، خرجت من غرفة الرعاية المركزة.. عازمًا على ألا أعود ثانية ذلك اليوم.. يكفيني ما رأيت..

والآن..؟!

"كود بلو أطفال في الاستقبال.. كود بلو أطفال في الاستقبال"

يدوي النداء في مكبرات الصوت ويتكرر مستفزًا فضولي، ومعلنًا عن توقف قلب طفل هذه المرة؛ لأجدني أمام الغرفة مترددًا في الدخول..

أمٌّ تبكي وتولول.. يتصدع قلبها من مجرد تصوُّر فكرة موت ولدها وتهذي بالكثير من الكلمات والجمل غير المترابطة، وأب يحاول تهدئتها والدموع تلتمع في عينيه..

والغريب أنني لاحظت أنه لا أحد يرصد كل هذه التفاصيل سواي..

هل الأطباء لا يلاحظون كل ذلك فعلاً؟! أم هل يعتمدون التجاهل وعدم التأثُّر؟

أدرت ظهري وقررت الابتعاد.. سأطمئن من أحد الأطباء بعد خروجه من غرفة الرعاية..

وعلى أحد الكراسي المتناثرة في ساحة الاستقبال، جلست متوترًا تدور عيناي في أرجاء المكان.

"هل أنت طبيب جديد هنا؟!"

قالها طبيب مر بجواري.. التفتُّ إليه مومئًا برأسي لأجده يبستم ابتسامة عذبة مطمئنة مربتًا على كتفي قائلاً:

- يبدو عليك التأثر.. يستسحن أن تتجاوز ذلك بسرعة حتى لا يعيقك عن العمل..

هززت رأسي موافقًا مزدردًا ريقي.. هل طلب مني للتو أن أتصرف كآلة أم أنا من يبالغ!!

خرج د.عامر فوزي من غرفة الرعاية الحرجة.. ألقى بجسده المنهك على كرسي مجاور لي..

سمعته يزفر ثم يخرج هاتفه بعصبية، وبعد ثوانٍ انبعث صوت الموسيقى من هاتفه. نظرت إليه متعجبًا وسألت:

- د/ عامر.. ما أخبار الحالة؟!

أجاب شاردًا:

- أي حالة؟

- العيان يادكتور.. الطفل الصغير.. هل عاد قلبه للعمل؟!

فتح فمه وهمَّ بالإجابة، ولكن سكت هنيهة ثم ما لبث أن قال ببطءٍ:

- وما شأني أنا؟ فلتذهب ولترَ بنفسك.. ألا تريد أن تتعلم؟!

رددت متلعثمًا:

- كنت سأذهب.. لكن.. ثم رأيتك تخرج و...

قاطعني وهو ينظر إليَّ نظرات ثابتة مركزًا عينيه على عينيَّ:

- هو صعبان عليك ولا إيه يا دكتور؟!

اتسعت عيناي دون أن أجيب.. هل من المفترض أن تكون إجابتي (لا)؟!

هل أخبره أنها مجرد مشاعر تأثُّر عابرة لا تلبث أن تزول لأعود إنسانًا آليًّا مرة أخرى؟!

رأيته وقد انصرف لهاتفه مرة أخرى يدندن مع الأغنية متجاهلاً إياي.. عضضت شفتيَّ بغيظٍ.

رباه.. لشد ما أكره هذا الرجل.. لماذا لا يخبرني ببساطة..

وهل يعقل أن يعبث بهاتفه ويستمع إلى الموسيقى الآن في هذا التوقيت بالذات؟!

نظرت إليه متسائلاً مستجديًا:

-يا دكتور عامر هل...

أجاب بعدائية: هذا ليس من شأني، اغرب عن وجهي.

لن أفهم هذا الرجل أبدًا..

بعد قليل تجرأت ودخلت غرفة الرعاية.. كان الولد مستيقظًا لحسن الحظ؛ يتألم بصوت واهن.. مَن يصدق أن هذا الجسد الصغير كان ميتًا منذ دقائق..

تعلمت أن صوت الألم قد يكون رحمة.. وأن عليَّ أن أخشى أكثر على المريض الذي لا يتألم ولا يصدر منه صوت؛ فقد تكون حالته خطرة فعلاً أو يكون حتى قد فارق الحياة..

وتعجبت..! إذا كان الولد قد أفاق..

لماذا لم يخبرني عامر إذًا؟!.. ذلك الوغد!

❊ ❊ ❊

"أنت المخطئ يا صديقي.. يهربون من هذه المشاعر طوال الوقت.. وأنت تثير أحزانهم وتواجههم بما يخشون."

قالها رأفت زميلي المتدرب الأقدم مني بشهور وهو يحتسي آخر رشفة شاي من كوبٍ ورقيٍّ ثم أكمل:

"يعرف كل طبيب في قرارة نفسه أن للمريض أهلاً وأحلامًا وعائلة.. يبذل قصارى جهده لإنقاذه، وسواء نجح أو لم ينجح في إنقاذه، لا بُدَّ فورًا أن ينسى أمره فور اتجاهه للمريض التالي"

محاولاً ابتلاع هذا المنطق تمتمت:

- لكن لا يمكنني تصور أن...

اعتدل في جدية قائلاً:

- اسمعني جيدًا.. يتحرك الطبيب في المسافة ما بين قضاء الله ورحمته ليس إلا...

تعلمت هذا من أساتذتي.. ظل د. محمود سامي يرددها أثناء تعليمنا حتى...

قاطعته متعجبًا:

- تقصد د.محمود سامي طبيب الطوارئ الشهير؟! سأحضر ملتقاه الدولي لطلاب الطب الأسبوع المقبل.. كنت مترددًا في...

- ستستمتع كثيرًا؛ ففي دوراته التدريبية لطب الطوارئ والحالات الحرجة متعة كبيرة وإفادة.. على كل حالٍ سأحاول الحضور معك؛ أنا أواظب على حضور ملتقياته كل عدة أشهر.. ما تتعلمه على يديه لن تنساه ما حييت.. فلقد..

"كود بلو كبار في الاستقبال.. كود بلو كبار في الاستقبال"

هرعنا أنا ورأفت إلى غرفة الرعاية الحرجة..

هنا ساحة الاستقبال.. حيث الأحاديث غير المكتملة والحوارات والمحادثات تبدأ هنا.. ولا تنتهي أبدًا..

*** * ***

بعد يوم طويل في الاستقبال دخلت إلى غرفة الجراحة ممسكًا بكوب من القهوة لعلّي أستعيد بعضًا من قواي وتركيزي..

"دكتورربيييييع"

اتسعت عيناي وأنا أستمع إلى النداء، ولم أتمالك نفسي فابتسمت.. هل هذا يحدث حقًّا؟!

هل سألتفت لأجد كاركتر الممثل بيومي فؤاد يواجه المرضى بضحكة سمجة وبلادة ولا مبالاة ونظرة كسول؟!

فالمسلسلات المصرية قد جعلت من اسم دكتور ربيع أيقونة..

دكتور ربيع في المسلسلات المصرية يرمز لحال الصحة والقطاع الطبي في مصر وكذلك ضعف الإمكانيات وبؤس الأطباء والمرضي معًا في قالبٍ كوميديٍّ مريرٍ..

التفتُّ متوقعًا رؤية رجل بدين متكاسل يشبه (بيومي فؤاد).

أيقونة الطب المصري في العالم الحديث.

فوجدت شابًا مصريا بملامح مصرية أصيلة قمحي البشرة متناسق الجسم يبدو عليه الجد والنشاط.. يتحرك في كل مكان بشكل دؤوب بلا كلل أو ملل، وجدته مقبلاً ومعه طفلة صغيرة عمرها أربع سنوات مصابة بجرح قطعي في ركبتها اليسرى.

كان قليل الكلام كثير العمل والحركة..

لبس قفازه الطبي وأشار إليَّ بارتداء واحد آخر.. نفذت ما قال متصورًا أن الوقت قد حان أخيرًا لأن أستمع لتوجيهات طبيب جراح وأساعده أثناء تقطيبه جرحًا او تطهيره وبدون أن ينظر إليَّ أشار إلى الجرح قائلاً:

"هذا جرح بسيط له بداية ونهاية واضحة كما ترى

وحقن الطفلة المصابة بالمخدرالموضعي بعد أن مازحها وطمأنها..

غريب..!!

من وجهة نظري المتواضعة فأطباء الجراحة هنا هم الأقرب للآدميين وبني البشر.. رغم تعاملهم مع الجروح المفتوحة والدم المنبثق في كل مكان طوال الوقت..

بعد التخدير هممت بمناولة د. ربيع الأدوات فرأيته يناولني ماسك الإبر آمرًا إياي بتقطيب الجرح.. تجمدت في مكاني لثوانٍ قبل أن ألتقط الإبرة..

تدربت على تقطيب الجروح ورأيت آلافًا من الغرز يتم تقطيبها أمامي في الاستقبال نعم.. لكن التنفيذ شيء آخر..

كاد قلبي أن يثب من فمي و د. ربيع ينظر إليَّ محفزًا ومشجعًا ومداعبًا الطفلة في ذات الوقت..

الغرزة الأولي كانت الأصعب. لي وليس للطفلة بالطبع كانت يدي ترتعش وماسك الإبر يتحرك من يدي جراء توتري..

نظرت للدكتور ربيع لعلي أستمد منه قوة بعد أن فقدت كل قواي..

"اهدأ أنت جيد.. وأنا هنا معك."

كانت كلماته سحرية توقفت على أثرها ارتعاشة يدي..

انتهيت من تقطيب الجرح بمهارة مصحوبة بعبارات الثناء والتشجيع من طبيب ماهر كنت ولا أزال أعتبره المعلم الأول والحقيقي لي.. علمني المواجهة ولم يبخل على بعلمه يومًا رغم إكثاري عليه بالأسئلة..

ودَّعتنا الطفلة مبتسمة وشعرت بنشوة لم أجرب مثلها في حياتي أبدًا، والعديد من الأحاسيس المختلطة التي يغلب عليها السعادة والحماس..

"هذه بضعة غرز جراحية.. أنت لم تفتح عكا بعد يا دكتور."

كان هذا هو معكر الأجواء د. عامر بالطبع. مطلاً بوجهه من غرفة الجراحة. قالها رافعًا أحد حاجبيه.. أجبته بسماجة مبتسمًا له ابتسامة صفراء:

-أول الغيث قطرة يا دكتور.

وضعت يدي في جيب البالطو الأبيض خارجًا من غرفة الجراحة بالطوارئ لأسمع صرخة مدوية صادرة من غرفة العظام جمدتني مكاني.. زفرت الممرضة الجالسة خلف مكتب الاستقبال ال "counter" مقلبة شفتيها بامتعاض متمتة:

- دكاترة العضم دول مش هيموتوا موتة طبيعية أبدًا.

ابتسمت لها مجاملًا وولیت وجهي شطر مصدر الصرخات:

"غرفة التعذيب" كما أسميتها.. وكشك العظام أو "غرفة العضم" كما يسميها الجميع هنا..

كان طبيب العظام الذي لا أعرف اسمه بعد يمسك ذراع مريض محاولًا ردَّ الكسر قبل أن يقوم بتجبيره

نظرت إلى هيئته وتعبيرات وجهه متأملًا رداءه المختلط بالجبس كأنه عامل باليومية في شركة مقاولات كبيرة..

لم أرَ أي زي طبي "Scrub" واحد نظيف مهندم لطبيب عظام لأكثر من ساعة.

أيضًا لاحظت أن بينتهم قوية. وهذا منطقيٌّ بالطبع لأنه من مؤهلات عملهم الشاق.

تأملت ملامح وجهه. ترى كيف يتعاطى ويتعامل مع كل هذا القدرمن الألم كل يوم؟!

يستمع إلى صرخات مدوية من النساء ورجال وأطفال وحتى شيوخ يقوم بعلاجهم وتجبير كسورهم

هل اعتاد صرخات المرضى؟! هل يعتاد أحدٌ أصلاً مهما كانت قوته كل هذا القدر من الصراخ دون أن ينهار أو يفقد أعصابه يومًا؟!

هل هو سادي؟! تأملته.. يبدو هادئًا ثابت الجنان يتأمل أشعة المريض ثم يتجه إليه بآلية، عندها أدير ظهري خارجًا من الغرفة تشيعني صرخات المريض منطلقة مدوية..

شدني ممرض وهو يعدو بجواري..

- تعالَ معي. هناك حالة في الرعاية وصلت حالًا.

كنت بشكل عام غير مرئي للكثيرين لكنني كونت عددًا لا بأس به من الصداقات مع بعض الممرضين والأطباء بل والعمال أيضًا، كان الأطباء بشكلٍ عامٍ يسمحون بتواجُدي ولا يمانعون (نظرًا لأنه مستشفى تعليمي) والقليل منهم من يدعني لمساعدته والنادر منهم من يأمرني بتولي الحالة تحت إشرافه (وكان أول هؤلاء النادرون د. ربيع الذي أصبح صديقي المفضل فيما بعد ومعلمي الذي تأثرت جدًّا به في الأسابيع الأولي لي في المكان.. وكان الممرضون وبعض العمال يدعونني للذهاب للحالات التي يحسبون أنني سأتعلم منها أكثر من غيرها.

"فيم تفكر يا دكتور. هيَّا.."

وانطلق فريق الرعاية "أطباء وتمريض" يجرون إنعاشا قلبيا رئويا للمريض "CPR" لعله يعود لعالمه ، وأسرته الباكية ، وذكرياته ، وحياته من جديد.

بمجرد أن دخل الممرض ونظر إلى الحالة مط شفتيه وهز رأسه قائلاً:

- الحالة die المريض لن يعود..

وخرج بينما طبيب الطوارئ مع ممرض الرعاية يحاولون إنعاش القلب وأعادته للحياة.

يحقنونه الأدرينالين، يجرون C.P. R بلا جدوى.

حسنًا. كان الممرض على حق.. تدهشني خبرة وقدرات بعضهم التي تضاهي خبرة الأطباء؛ بل وتتفوق عليهم أحيانًا مهما كره الأطباء هذه الحقيقة.

زفرت بضيق خارجًا من غرفة الرعاية متوجهًا إلى مكاني المفضل "غرفة الجراحة".

لم أنسَ يومًا كلام أستاذي العبقري في الجامعة د.حسام موافي حين قال:

- "قبل أن تختار تخصصك لا بُدَّ أن تسأل نفسك سؤالاً في غاية الأهمية، ألا وهو: "هل أنا مشرط ولا سماعة؟!"

أنا شخصية "مشرط" أم شخصية "سماعة"؟!

الرجل المشرط لا بُدَّ من توافر صفات معينة فيه. يكون ثابتًا جريئًا..

لا يخاف "مايتلخمش".. يريد أن يعيش في غرفة العمليات.. "جرَّاح"..

أما الرجل السماعة فيحب المذاكرة ولا يجيد المواقف الصعبة الموترة..

إذا كنت "سماعة" فلا تختر الجراحة، لكن يناسبك أكثر تخصصات الباطنة أو القلب أو الصدر أو الأعصاب أو النفسية.. إلخ..

أما إذا كنت "مشرط" اختَر تخصص الجراحة العامة أو المسالك البولية أو العظام. إلخ..

لا بُدَّ أن تسأل نفسك هذا السؤال أولاً..

لأن الخطأ الذي يقع فيه الغالبية العظمى منكم أنه يبحث عن التخصص الذي يربح جيدًا ويبتعد عن باقي التخصصات بحجة أنها "مابـتأكلش عيش".

تذكروا دائمًا قول الله عز وجل "وفي السَّماءِ رِزقُكم وما تُوعَدُون" وارد جدًّا تتخصص جراحة لأن الجراحين يكسبون قدرًا لا بأس به من المال، ومع ذلك لا تعمل أنت أو لا تربح كما يربح أطباء الجراحة.

حسنًا.. كلامه يبدو منطقيًا. لكن من غير المنطقي بالنسبة لي أنني أرى شخصيتي (سمَّاعة) ومع ذلك لا أرتاح إلا في وجودي مع (المشارط) في غرفة الجراحة في ساحة الاستقبال..

هذا غريب!!

الجراحة بسيطة 1+1= 2

حيث يدخل مرضى الجراحة على الأغلب بكامل وعيهم.. ويخرجون منه كذلك..

حيث لا كود بلو ولا عظام في غير موضعها ولا غيبوبة نقص سكر..

اتضح بعد ذلك بالطبع أن نظريتي حمقاء تمامًا وأن العديد من المرضى يأتون في حالة إصابات متعددة..

Polytraumatized patients

مثل جروح قطعية بالإضافة إلى خلع في أحد المفاصل أو كسر في بعض الضلوع أو مريض ضغط أو سكر أو سيولة يعاني من جروح قطعية. إلخ؛ فضلا عن حالات الانتحار والألسنة المقطوعة والجروح الهرسية.. دعونا من كل هذا سأحكيه لكم فيما بعد..

ولنتكلم الآن في موضوع مبهج، مثلاً ذلك اليوم الذي رأيت فيه د. عامر غاضب أشد الغضب مقطبًا حاجبيه لا يسخر من كل شيء حوله كالمعتاد..

ابتسامة متشفية أفلتت من بين شفتي. كنت أتجنبه كثيراً وهو في حالته الطبيعية يمزح ويسخر من نفسه وممن حوله بسماجة قد تدفعك لدق عنقه في الحال..

اقتربت منه بخطوات ثابتة وما زالت آثار ابتسامة على وجهي؟؟

"كيف حالك يا دكتور"

نظر إلى نظرة طويلة ثم أشاح بوجهه متمتمًا "كيف أنت يا طالب الطب".

يتكلم مع د. ربيع بنبرة غاضبة عن طبيب آخر لا أعرفه بينما يحاول ربيع تهدئته ويخبره بابتسامته المعهودة وصوته الهادئ أن الأمر لا يستحق، عندما ظهرت هي..

د.أمل.. لمحتها عدة مرات لكنها بدت لي اليوم أبهى من كل مرة..

رائحة الألم

كوب ورقي من القهوة اللذيذة نفَّاذة الرائحة بيدها، وابتسامة عذبة..

تعلو محياها كل صباح..

هكذا كانت "أمل" وهكذا كانت طبيعتها مهما ساءت بها الظروف..

سمعت من ممرضة ثرثارة أنها كانت مرتبطة برجل أحبته حبًّا جمًّا لكنه مات في حادث.. تحجرت الدموع في عينيها

لم تبكِ أبدًا. لم تزل تؤمن بأن وقت البكاء لم يحن بعد. لم تكن بجواره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. تخيلت الموقف مرارًا. كان ينزف وكان يتألم وكان بعيدًا عنها..

حسنًا. إذا لم تستطِع إنقاذه ومساعدته. فلتساعد من تعرفه ومن لم تعرف إذًا..

لربما تعيد يومًا حبيبًا إلى حبيبته أو زوجًا إلى أسرته وأبنائه.. لربما حتى تستطيع أن تنقذ (حسين) آخر لتسعد (أمل) أخرى في حياتها..

ترى إذا حققت هذا هل تجلب السعادة التي فقدتها فأطفأت روحها وأنارت وجهها؟

بسمة مستعارة جميلة ترتديها على ثغرها وتخرج إلى الناس بها كل صباح. حسين.. لم يكن حبيبها منذ أيام الكلية ولم يكن جارها ولم تكن قصتهم بذات تميز وروعة قصة عنتر وعبلة أو روميو وجوليت..

كان زميلها في العمل بذات المستشفى. وكان هادئًا مبتسمًا تشع عيناه ذكاءً وعاطفةً..

كانت تشم رائحة الألم طوال الوقت..

نعم.. للألم رائحة كما للموت رائحة كذلك.. لكنها اعتادت الأمر. اعتادت أن تلتمس الأمل وتتفاءل بأبسط الأشياء..

الطوارئ هنا ساحة قتالها. كانت أمل قوية

امرأة تصعب هزيمتها، وكانت مهزومة رغم ذلك..

ابتسامتها المشرقة صاحبتها دموع ظلت حبيسة عينيها لأعوام..

لم تكن قوية لكنها اعتادت أن تكون..

هنا تسمع الأنين طوال الوقت وترى الألم وتعايُشه. تشم رائحته واضحة نفاذة. ولا يشفي قلبها

إلا رائحة أخرى تزاحم وتطغى وتنتصر أحيانًا.. رائحة (الأمل)..

مريض تم إنقاذه. قلبه عاد للعمل بعد أن توقف مرهقا محتجًا على صاحبه. طفل توفي وآخر ولد بسلام بعد ولادة متعسرة..

نعم. كانت رائحة الأمل تنتشر بعبيرها الفواح أحيانًا. رغم سوء الحال وقلت الإمكانيات في هذا المستشفى المتواضع كحال مستشفيات مصرنا الحبيب.

كانت تحب عملها. تعمل بكل طاقتها. أخبرها أستاذها يومًا بأن الطبيب يتحرك في المسافة بين قضاء الله ورحمته..

ما أصدق هذه الكلمة. ساعدها أساتذتها كثيراً. وكانت أمل ممن تنتقل إليهم عدوى الشغف..

لا بُدَّ أن تذهب لملتقى الأطباء الذي يعقده د. محمود بعد أيام..

ما أجمل أن تدرس في مكانٍ.. فتعود إليه معلمًا يومًا ما..!

وملتقيات الدكتور محمود سامي ليست مكانًا.. بقدر ما هي معنى.. ومسؤولية وشحن لطاقتك كمنقذ حياة..

رفض السفر وجاب محافظات مصر وربوعها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا.. ليعلِّم طلاب الطب والأطباء وغير الأطباء أيضا كيف يتصرفون في الحالات الحرجة.. بأسلوب مرحٍ ورشيقٍ.. وعزيمة لا تهدأ ولا تكل ولا تمل

لا يستقر في مكانٍ واحدٍ لأكثر من ثلاثة أيام.. ترى ممَّ يهرب؟!

تعلم جيدًا معنى الألم؛ كما تعلَّم كذلك ردود أفعال النفس البشرية.. جربت في محنتها أن تهرب إلى أماكن عدة، لكن.. إذا كانت أحزانك بداخل نفسك وقلبك الممتلئ بالفقد والحزن والخذلان هو حقيبة سفرك.. فأين المفر؟!!

❊ ❊ ❊

ألقيت بجسدي على الأريكة بعد يوم شاق في قسم الطوارئ، وما زال طيف "أمل" يتراءى لي، بابتسامتها العذبة التي لا تكاد تفارق وجهها.. والتي تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ البكاءَ..

"خسارة"..

زفرتُ بالكلمة في أسفٍ فالتفت إليَّ زميلي "د.مازن" متسائلاً، فاستطردت:

- "خسارة أن يضيع العمر في انتظار ما لا يأتي أبدًا.. خسارة أن تفقد "أمل" حب حياتها بتلك الطريقة المؤلمة".

ردَّ وهو يقضم شطيرته قائلاً:

"نعم.. ولكن هو الخاسر، ولا يعيبها أبدًا ما حدث كما تعلم.. شابٌ عابِثٌ يتلاعب بالفتيات مستغلاً وسامته ووظيفته المرموقة.. من الجيد أنها اكتشفت خيانته وإلا...

بترَ جملته حين رآني أحدِّق فيه ببلاهة..

- ما بكَ؟!

- ألم يمت خطيبها في حادثٍ أليمٍ؟!

ابتسم مازن:

- كان الحادث الأليم هو اكتشافها لعلاقاته المتعددة. وبعد فترة اكتئاب طويلة قررت أن تقتله..

ارتعدت فرائصي فأردف بسرعة:

- تقتله في قصتها.. تدّعي موته.. لكُلٍّ منا طريقته في التعامل مع الحزن يا صديقي.. يخيل إليَّ أحيانًا أن عقلنا الباطن يعاني معنا.. يخدعنا أحيانًا حتى لا يقتلنا الألم.. إنها عجائب النفس البشرية..

سألته بحذرٍ وأنا أخشى الإجابة:

- ألا يؤثر هذا على تعاملاتها مع المرضى؟!

هزَّ رأسه نافيًا:

- هي تعلم أنه حيٌّ يرزق.. وأنه من حثالة البشر، واختارت قصة موته على قصة خيانته والجميع يعرف والجميع سعداء..

وربت على كتفي قائلاً:

- أمل فتاة قوية.. ستتجاوز الأمر مع الوقت.. لاسيما بعد انتقاله للعمل في محافظة أخرى بعيدة..

رفعت قدمي -التي تئن من الألم- على منضدة صغيرة أمامي..

ما أعجب الإنسان!! يخشى السعادة كأنها كابوسٌ؛ وعندما يتمكن منه الألم - نفسيًّا كان أم جسديًّا- يقاومه بكل ما أوتي من قوة، وبكل الطرق.. مشروعة كانت أو غير مشروعة..

هذا يذكرني بـحكاية "تامر ترامادول".. لكن هذه قصة أخرى قد أحكيها لكم لاحقًا.. دعونا من الثرثرة الآن.. ألا تسمعون أصوات المرضى وصياحهم بالخارج؟!

***

القاعدة تقول إن الطبيب الذي يمشي في المستشفى منتفخ العينين، منفوش الشعر، مختالاً بـ "الكروكس" والزي الـ Scrub الكالح، هو طبيب كفء يعمل بجِدٍّ ونشاطٍ طوال الوقت..

وعلى حسب درجة انتفاخ العينين وانتفاش الشعر ستعرف كم ليلة قضاها هذا الطبيب في المستشفى؛ فهناك تناسُب طردي واضح كما ترى.

لذا فعندما تراني مرتديًا البالطو الأبيض، الذي تم تنظيفه وكيُّه بعناية فائقة.. إلخ ؛ حسنًا أنت تعرف السر الآن..

طبيب بهيُّ الهيئة نظيف الثياب، هو إما من طاقم إدارة المستشفى، وإما متدرب شفاف مثلي، وإما طبيب حديث التخرج يمشي مختالاً في طرقات المستشفى..

أما الطبيب الذي يتجول في المستشفى بخطىً متثاقلة، وكأنه يجرّ رجليه جرًّا، ويبدو لك كأنه في طريقه من صالة بيته إلى دورة المياه، وليس في طريقه لغرفة الفحص في المستشفى؛ فهو طبيبٌ مجتهدٌ مُنهَكٌ يواصل عمل الليل بالنهار – باستثناء عامر بالطبع- فلعامر قواعد وقوانين أخرى؛ لذا

لا تتعجب يا صديقي إذا رأيت عامرًا يتجول في الاستقبال رافعًا رأسه إلى الأعلى مدندنًا بأغنية حزينة، ثم ما يلبث أن يرفع عقيرته بالغناء قبل أن يقاطعه مريضٌ ما.. هذا هو د.عامر بعد ثلاث ليال متواصلة في المستشفى..

الآن انطلق النداء الشهير مجلجلاً في مكبرات الصوت مدويًّا في جنبات وأرجاء المستشفى..

"كود بلو كبار في الاستقبال.. كود بلو كبار في الاستقبال."

اصطدم ربيع بعامر في الممر وانطلقوا يجرون نحو غرفة الرعاية، بعد أن دبَّ فيهم النشاط بشكل مفاجئ ناسين إرهاقهم ورغبتهم الشديدة في النعاس..

رباه.. كم أحب ذلك!

سأتفوق على هذا يومًا..

* * *

تستمر الحياة وتمضي الأيام، في تلك الأحيان قد نظن بأن حالنا ثابتٌ لا يتغير مهما تغيَّرْنَا..

لذا لا تتعجب أرجوك حين تراني أمشي في الاستقبال منفوش الشعر منتفخ العينين، مختالاً بـ (الكروكس) الرمادي كالح اللون، الذي يشبه في كلاحته الـ (اسكراب) الذي أرتديه..

أحتسي مشروبي السحري (القهوة) من كوب ورقي وأتثاءب بشدة كأفراس النهر..

نعم.. هذا أنا لا تتعجب..

أسمعك يا من تقول إنني قد تحولت إلى نسخة أخرى من كل طبيبٍ آخر موجود هنا، وأنت يا مَن تقول بأنني قد صرت "ربيع" آخر..

أسمعكم ولولا إرهاقي، وحاجتي الشديدة إلى النوم لأجبتكم، وربما لأوسعتكم ضربًا..

أنا لا أشبه أحدًا؛ فلدي طموحي، وخُططي المستقبلية الواعدة التي..

هاااااوم.. نعم.. أصبحت ربيعًا آخر؛ فهل استرحتَ الآن؟.. كلنا ربيع.. كلنا عامر.. كلنا حتى طبيب العظام السادي الذي لا أعرف اسمه..

طالما لست مشهورًا، ولست مليونيرًا، ولست صاحب مستشفى استثماري فأنت ربيعٌ آخر.. ما دامت أحلامك بسيطة فأنت ربيع آخر..

لطالما سألت ربيع و عامر وغيرهما عن أقصى طموحٍ لهم في الطب، وكان ردهم عجيبًا:

"لا شيء"..

أجاب ربيع بمنتهى البساطة.. اتسعت عيناي في ذهولٍ، وأنا أحثه على الإجابة، وأستفز طموحه قائلاً:

"هل تعني أنك درست وتعبت كل هذه السنوات، وستظل تتعب وتدرس لسنوات أخرى من أجل لا شيء؟؟ فقط ستظل كما أنت؟!

لا خطط؟! لا سفر للخارج؟! لا مستشفى خاص.. لا شيء؟!!

وأكملت بعصبية وكأنني أتحدث إلى نفسي:

- لطالما تخيلتك مديرًا لمستشفى تعليمي خاص، تعلِّم فيها طلاب الطب، وحديثي التخرج، والممرضين، كيف يعملون بجِدٍّ، كيف يساعدون الناس وكيف يتعاملون مع المرضى !

نظر إليَّ متعجبًا وضاقت عيناه وهو يردد:

- مستشفى تعليمي خاص؟!

ثم علت ضحكاته مقهقهًا وهو يضرب كفًّا بكف، مربتا على كتفي بإشفاق كأنني مختل..!

عقدت ساعديّ منتظرًا أن يفرغ من ضحكاته الجذلة ليوضح لي وجهة نظره..

- "شوف.. أحلامي بسيطة جدًّا.. لا أريد أن أسافر، ولا أريد أن أكون كبير الجراحين في مصر - لو وجد شيء كهذا-، فقط أريد أن أكون طبيبًا جيدًا.. أساعد الناس، أكمل تجهيز شقتي وأتزوج أخيرًا من بنت الحلال التي تحملت ظروفي كثيرًا.."

هززت رأسي بشدة رافضًا منطِقَه الغريب.. هل تخلَّى للتوِّ عن منصب مدير المستشفى -الخيالي - الذي منحته له؟!

هممت بمحاولة أخرى لإقناعه بالقوة، حتى وإن اضطررت للكمه في أنفه، لكن حدث ما قطع حديثنا -العبثي- الناتج عن الإرهاق الشديد والسهر المتواصل..

فقد دخلت علينا -مهرولة- طفلة في الخامسة من عمرها، تزمُّ شفتيها بشدة، تتبعها أمها تبكي وتستغيث..

تركت كوب القهوة الورقيّ، وهرولت إليها مهدئًا، سائلاً إياها عمَّا

أصابها، فأشارت إلى ابنتها، التي ما لبثت أن فتحت فمها ببطءٍ وحذرٍ، فتدلى لسانها أمامنا، وكانت المفاجأة..!

كان اللسان مقطوعًا تقريبًا، كان متعلقًا بجزءٍ صغيرٍ يبقيه في فمها، وبما أن الجرح عميقٌ إذًا فهي تحتاج لخياطة جراحية عاجلة..

"غرز جراحية في اللسان؟!"

كنت قد قرأت عن الحالة في الكتب فقط وكنت أرى ما درسته على الطبيعة لأول مرة، فردَّ ربيع:

- نعم بالطبع.. الـ Gap كبيرة جدًّا، هل تظننا سنتركها تمشي بلسانها متدليًا هكذا؟!

كانت الممرضة قد اختفت فاتجهت بآلية إلى دولاب الأدوات وارتديت القفاز الطبي الشهير، المصنوع من مادة اللاتكس، ولوحت بقفاز آخر لربيع فالتقطه بمهارة ثم نادى للممرضة (هناء) سليطة اللسان، التي أجزم أنها تلعن أجدادنا في سرها وهي (تبرطم) برطمتها المعتادة..

جهزت هناء الأدوات وبدأ د. ربيع ببراعته المعهودة يهدئ من روع الطفلة، ويسألها عما حدث وهو يعلم يقينًا أنها لن تجيبه، لسببٍ بسيطٍ جدًّا، وهو أنه يمسك لسانها بيده.

كانت الطفلة ملك تنظر إلينا بخوف، بينما انبرت أمها تحكي ما حدث،

وكيف أنها كانت تركض في الشارع فوقعت وقضمت لسانها، ثم لعنت (العيال، وشقاوتهم، والبلاوي اللي بتيجي من وراهم).

همس ربيع للممرضة بصوت منخفض:

- جهزي اللوكال علشان الدكتور يديهولها، وهنحتاج نثبتها كويس علشان لو اتحركت أي حركة مفاجأة هتتعور.

واللوكال لمن لا يعرفه هو حقنة التخدير الموضعي (Local anes-thesia).

التقطتها متأهبًا، بينما ابتسم د.ربيع للطفلة ملك قائلاً:

- أعرف أنك تتألمين، سأخدر مكان الألم حتى لا تشعري بشيء.. مستعدة؟! سأضع قطعة الشاش هذه على عينيك للحظة، حتى لا ينزل الدم على وجهك، اتفقنا؟

ثم ناول (هناء) الممرضة قطعة من الشاش وضعتها على وجهها، وأمسك بدوره قطعة شاش أخرى، ليمسك بلسانها خارج فمها..

بدأت بحقن موضع الجرح بالليدوكايين، لتسدد الطفلة ضربة خطافية بقدمها إلى وجه (هناء) الممرضة سليطة اللسان التى صرخت، وأطلقت سيلاً من السباب المكتوم، وهي تتجه إلى الطفلة عازمة على التهامها حية، لكن د.ربيع أنقذ الموقف وأرسل الممرضة سليطة اللسان إلى الخارج لإحضار شيءٍ لا أذكره، المهم أنه أبعد أنيابها عن عنق الطفلة بأعجوبة.

انتهينا من الغرز الجراحية للسان الطفلة بسلام، وتركت د.ربيع يكتب الدواء ويخبر الأم بالتعليمات الهامة، بضرورة منع المشروبات الساخنة حتى يلتئم الجرح... إلخ، وخرجت من غرفة الجراحة لأجد أبًا قلقًا على وشك الانهيار يتحرك بعصبية شديدة، وما إن لمحني حتى توجه إليّ قائلاً:

- الولد وشه مفتوح أرجوكم الحقوه..

تلفتُّ حولي باحثًا عن طفل مصاب بجرح قطعي في وجهه فلم أجد، ثم نظرت إلى الأب مرة أخرى متسائلاً، فأشار بعصبية ونفادِ صبرٍ إلى ولد يقف بجواره هادئًا والدموع متحجرة في عينيه فزعًا (من تصرفات والده بالتأكيد)..

كان الجرح فوق الحاجب الأيسر صغيرًا وسطحيًّا لن يتجاوز الغرزتين بأية حال.. وعندما أخبرته انتفض قائلاً:

- مش عايزه يسيب أي علامة في وش (لؤي).. هاتووولي جراح تجميل.. هاتووووولي مدير المستشفى.

(آه.. هي نبطشية سودا أنا عارف).

هكذا حدثت نفسي.. كنت مرهقًا، أجاهد للوقوف وكان عصبيًا متحفزًا من أجل لا شيء.. الولد بخير بالفعل، وسنتولى علاجه فما المشكلة؟ يريد التشاجر إذًا؟!

وماله! عز الطلب..

وقبل أن أكور قبضتي ملوحًا بها أمام وجهه، خرج ربيع ليتولى الأمر بسلاسة كعادته، ويخبره أننا هنا في استقبال الطوارئ، وأننا سنقوم بتجميل الغرز الجراحية قدر الإمكان، وشرح له أن التئام الجروح بلا آثار يعتمد على عوامل عدة، مثل: الغيارالجيد على الجرح، وطبيعة الجسم و...

بدا عدم الاقتناع على وجه الرجل واضحًا جليًّا، كما بدا من نظراته المستنكرة أنه يزدرينا جميعًا، فأي طبيب هذا الذي لا يشير بعصاه السحرية فتختفي الجروح، وتلتئم فورًا بلا أثر، وتتبدد الآلام ويعم السلام العالم..

(كان القرد نفع نفسه ياعم الحاج)..

الغريب أنه رآنا ونحن نخيط الجرح الكبير للسان الطفلة، ولم يهتز له جفن، بل وأخبرتني الممرضة هناء سليطة اللسان – التي تصبح مؤدبة فجأة مع أقارب المرضى الغاضبين- أنه كان يزفر متضايقًا لأننا استغرقنا بعض الوقت في إغلاق جرح البنت، وإعادة لسانها إلى مكانه!!

أي نوع من البشر هؤلاء.. يظنون أنفسهم من طينة أخرى غير البشر..

وددت لو كان عامر موجودًا في تلك اللحظة.. ما أجمل الوقاحة عندما تكون بحقها وفي موضعها..!

صوت سارينة الإسعاف.. يتبعه هرولة ووقع خطوات كثيرة في الممر.. يظهر بعدها المسعفون يدفعون مصابًا مغطى بالدم على ترولي..

"حادثة يا باشا.."

هتف بها المسعف وهو يلهث دافعًا السرير إلى غرفة الرعاية الحرجة، ثم...

"كود بلو كبار في الاستقبال.. كود بلو كبار في الاستقبال."

اجري أنا وربيع وكل طبيب آخر متواجد يستطيع المساعدة، مخلفين وراءنا رجلاً غاضبًا يبحث عن المدير ليتشاجر معه مستنكرًا عدم وجود فريق لجراحة التجميل في قسم استقبال الطوارئ..

***

هل جربت يومًا ذلك الشعور؟! أن تستيقظ من نومك شاعرًا بالضيق.. راغبًا في إعطاء ظهرك للعالم زاهدًا في الحياة، شاعرًا أن العالم – على اتساعه- يضيق بك، وبأن جدران حجرتك تضيق وتقترب حتى تكاد تطبق على أنفاسك؟!.. لست وحدك إذًا..

حاولت في ذلك اليوم النهوض من فراشي.. قمت متثاقلاً، وكان من عادتي الابتسام لنفسي -المنهكة- في المرآة كل صباح..

لماذا نبحث عمن يدعمنا، في حين أن نفوسنا أولَى بحبنا ودعمنا؟!

كنت أبتسم لنفسي، وأمازحها كل صباح، راغمًا إياها على المضي قدمًا سعيًا لحياة ناجحة ومستقبل مشرق، نساعد فيه آلاف المرضى، ونغير الكثير من الواقع، لكن..

الواقع مرير.. والحقيقة فاضحة.. والإمكانيات متواضعة.. والعالم مكانٌ قاسٍ..

اجترت فلسفتي الحزينة، وقدمي المتخاذلتين للمستشفى، حيث ساحة استقبال الطوارئ المليئة بأحداث أكثر حزنًا من أحزاني..

تلقتني الممرضة سعاد بابتسامة واسعة تزف إليَّ خبر خطبة عامر وأمل ولسانها يلهج بالدعاء لهما بعد وليمة الاحتفال التي أحضروها وأكل منها الجميع، احتفالاً بالنبأ السعيد..

(متمتمًا)

- هو اليوم الحلو بيبان من أوله.. صباح الزفت يا مس سعاد..

- بتقول حاجة يا دكتور؟

- بقول هو اليوم الجميل بيبان من أوله.. صباح الفل يا مس سعاد.

-صباح العسل يا دكتور.

دخلت غرفة الجراحة هاربًا من عامر وأمل والجموع المهنئة لأجد د. محمد تقارير أمامي، فتنفست الصعداء.

ودكتور محمد لمن لا يعرفه، هو جراح ماهر ومعلم ممتاز، لكن يوقعني حظي العاثر معه دائمًا في حالات الاعتداء، حيث تأتي المريضة من القسم بصحبة أحد الأمناء، بعد عمل محضر للمعتدي عليها - زوجها في أغلب الحالات.. وفي هذه الحالة يتم فحصها، ويكتب الطبيب في التقرير ما يراه بالضبط من إصاباتها دون زيادة أو نقصان..

وتظل تقنعنا المرأة بمدى دناءة زوجها، وأنه يستحق السجن مدى الحياة أو الإعدام رميا بالرصاص، لما سببه لها في حياتها من اعتداءات نفسية وجسدية، وأحيانًا جنسية، وأنه لمن الشهامة أن نكتب في تقريرنا أنه سبَّب

لها عاهة مستديمة وأن علاجها سيستغرق أكثر من واحد وعشرين يومًا، ليتحول الأمر من جنحة إلى جناية..

- أنا مش بتبلى عليه يا دكاترة، والمصحف هو اللي ضاربني ومبهدلني وواخد فلوسي، حتى شوفوا..

وفي لحظة ترفع ثيابها فأهرول لأغلق الباب لأستر المريضة، وأمنع النظرات الفضولية، ويهرول د.محمد لينادي أي ممرضة لتكون معنا في هذا الموقف الهلامي، فقط ليكتشف أن الممرضات قد تبخرن جميعًا، أو تم اختطافهن بواسطة كائنات فضائية، أو- رحن يلحقن صلاة العصر-، فأنادي أم أحمد العاملة، ونغلق الباب ونثبت الحالة ويكتب التقرير، بعد أن نشرح للمصابة أن الكشف عن أي اعتداءات جنسية هي مهمة الطب الشرعي وليس أطباء الجراحة أو الطوارئ..

ثم أستعد للتعلم أكثر من هذا الطبيب المتمكن وبعد حالتين جراحيتين بالضبط تأتينا حالة اعتداء أخرى، وهكذا أصبح اسمه في رأسي د.محمد تقارير، ورغم ذلك؛ فما زلت أتعلم منه الكثير، وأستمتع بصحبته..

كنت أحتاج في ذلك اليوم إلى ما هو أكثر.. شيء ما أصاب قلبي وعزيمتي؛ لذلك لم أمانع عندما عرضَ عليَّ صديقي مازن أن نذهب لملتقى الأطباء الذي ينظمه د.محمود سامي كل عام..

وعندما وصلنا إلى القاعة أدركت أن هذا – بالضبط- هو ما كنت أحتاج إليه..!

* * *

كان الجو مشحونًا في القاعة بالأحلام والآمال وأيضًا بالمناقشات العلمية، والأحاديث عن أحدث الأجهزة والمعدات الطبية، ومقارنات بين القديم والجديد في عالم الطب..

كان هناك تنوع كبير في الحضور، ما بين طلاب الطب والتمريض والأطباء الجدد والقدامى، ومن يهتمون بهذا المجال.. كان الباب مفتوحًا للجميع.. لكل من أراد أن يتعلَّم ويعلِّم غيره..

مزيج عجيب هنا..!

في هذا العالم العجيب يتعلم طالب الطب من الممرض حديث التخرج، ويناقش الأطباء القدامى أطباء الامتياز، بكل بساطة، وبلا تعجرف أو تعقيد..

نظرت حولي.. هذه هي المدينة العلمية الفاضلة بلا ريب!

لم يكن (محمود سامي) طبيب الطوارئ الشهير مجرد طبيب.. كان أستاذًا معلِّمًا، وأبًا روحيًّا..

لم يكن يمنح شهادات دولية، أو يعدك بوظائف واعدة في الداخل أو

الخارج، لكنه كان يبذل لزملائه وطلابه ومريديه في كل محافظات مصر كل ما يحتاجونه من علم، بشكل مرح، حيث يصيغ المعلومة بشكل جذاب ساخر..

لذا لو كنت طالب طب تستمع إلى المعلومة بهذا الشكل لأول مرة، فلن تفارق رأسك ما حييت، ستتذكرها وأنت تتدرب وتتعلم في المستشفيات المصرية، ثم وأنت طالب امتياز، ثم أثناء فترة التكليف.. إلخ..

أما إذا كنت طبيبًا قديمًا أو أستاذًا بالجامعة فلربما تحتاجها لتنقلها إلى طلابك يومًا بذات الأسلوب الشيق..

كان د.محمود يجوب المحافظات بطول مصر وعرضها، ويعقد الكثير من اللقاءات في والدورات التدريبية في كل مكان يذهب إليه..

ينتقل من مكان لآخر بسرعة وكأنه يطارد شيئًا ما.. أو ربما يهرب من شيء ما..!

وعندما رأيته لأول مرة، عرفت بأنني سأتعلم منه الكثير، وبأنه سيصبح صديقًا وأخًا لي بقدر ما سيصبح معلِّمًا..

كان محمود سامي شابًا طويلاً عريض المنكبين، تعلو محياه ابتسامة عذبة تضيء ملامحه، وقلما تفارق وجهه.. لو رأيته لأول مرة قد تظنه مدربًا رياضيًّا، ولولا بساطته وتواضعه وابتسامته التي لا تكاد تفارق وجهه لظننته -ربما- طبيب عظام!

ولا أقصد بذلك أي إهانة لأطباء العظام بالطبع، لكنك تعلم جيدًا – عزيزي القارئ- قصتي مع طبيب العظام السادي، الصامت دائمًا كقاتل متسلسل.. هذا هو انطباعي الأول، ولأنني حديث عهد بالطب، فلا ريب في أنني سأقابل الكثير من الأطباء في كل تخصص ومجال، وستكون انطباعاتي الشخصية المتواضعة متفاوتة حسب ما أواجهه معهم من مواقف..

قد يكون طبيب العظام السادي زوجًا عطوفًا ودودًا، وصديقًا طيبًا، وقد يكون انطباعه عني بأنني مجرد كائن سمج متطفل يقتحم مساحته الشخصية بدعوى التعلم وحب المعرفة.. من يدري؟!

في قسم استقبال الطوارئ، كل هذا لا يهم.. هنا الأحاديث غير المكتملة والجمل المبتورة التي يقطعها قدوم حالات الحوادث، أو انطلاقات الكود بلو التي تعني وجود حالات توقف القلب..

هنا –في ساحة استقبال الطوارئ- لا بُدَّ من وضع الانطباعات الشخصية جانبًا، والتعامل مع كل أنماط البشر على اختلاف أشكالهم، وألوانهم، وأنماط سلوكهم، ومعدلات ذكائهم، ومستوياتهم الاجتماعية..

"وأذكِّر نفسي وإياكم زملائي، أن الطبيب يتحرك دائمًا في المسافة ما بين قضاء الله ورحمته."

انتزعتني جملة د.محمود من خضم أفكاري.. فعدت لأتابع الحدث العلمي الضخم –بنظري- والذي قد يعتبره البعض تقليديًّا معتادًا..

هذا هو مدير مستشفاي التعليمي الخيالي.. هكذا حدَّثتُ نفسي.. إذا قُدِّرَ لك أن ترى د.محمود سامي يومًا وهو يحاضر ويشرح لطلابه ومتدربيه فستعلم ما أعنيه تمامًا..

سوف ترى رجلاً يحب العلم ولا يكتمه، شغوف بعمله مبدعًا في تبسيط المعلومة ونقلها بسلاسة وترتيب ووضوح، تنتقل إليك عدوى شغفه فيوقد بداخلك شعلة من الحماس لا تهدأ.

لزمته بعدها لفترة مستزيدًا من علمه، ولفت انتباهي أنه لا يضع شروطًا لحضور ملتقياته العلمية، بل يدع بابه مفتوحًا للجميع، لكل من طلب العلم وأراد المعرفة، هكذا بلا تكبُّر أو تعقيد..

فتجد في محاضراته الطبيب وطالب الطب، والصيدلة، وطلاب العلوم، وكذلك التمريض، وحتى المهتمون بهذا المجال من غير طلابه يحضرون بهدف التوعية الصحية أحيانًا..

وجدت نفسي في عالم محمود سامي، وبدأت في الانخراط معه في مجتمعه المثالي ومدينته الطبية الفاضلة..

تنوعت عناوين لقاءاته ومحاضراته على مدار العام ما بين:

دورات طبية خاصة بالمهارات الجراحية والإكلينيكية وطب الطوارئ، إسعافات أولية، وإسعافات أولية متقدمة.. وطرق مكافحة العدوى، وأخلاقيات المهنة، وأيضًا مهارات التواصل، سواء مع أهل المريض، أو مع باقي الزملاء لاسيما في المواقف الحرجة..

كانت تلك هي أشهر محاضراته ولقاءاته، أضاف إليها بعد ذلك محاضرات متخصصة أكثر لمن أراد الاستزادة..

"مساعدة الناس.. الضمير المهني.. أنت الآن طبيبٌ أو ممرِّضٌ أو مسعفٌ، وغدًا أنت مريض، فكلما راعيت ربك وضميرك في مساعدة المرضى ستجد من يساعدك وقت مرضك وضعفك.."

عبارات لن تسمعها في مستشفياتنا المصرية، اللهم إلا إذا صادفت طبيبًا مطحونًا يرهقه الإحساس بالمسؤولية وتؤرقه واجباته تجاه المرضى المساكين.. طبيب من عينة د. ربيع إبراهيم.

بعد تحفيز وحماس امتلأت بهم نفسي بسبب طبيب متميز مثل د.محمود سامي، كان لا بُدَّ لي من خطوة أتقدم بها للأمام..

أنا الآن أعرف الكثير، أستطيع المساعدة، وأعرف كيف أكون مفيدًا في المواقف الصعبة..

أقوم بعملي على أكمل وجه وال Self confidence الخاصة بي أوج قوتها.. لكن، ماذا بعد؟!

يجتاحني كثيراً هذا الشعور، هناك الكثير مما أستطيع فعله، وسيضيف إليَّ كثيراً كطبيب، وكإنسان.. ولكنه لن يناسبني كطبيب وإنسان يعيش في مصر يريد أن يتزوج يومًا ما ويعيش حياة طبيعية هادئة بجانب حياته العملية.. فالظروف الاقتصادية طاحنة، وتكاليف الزواج مرتفعة، ولا بُدَّ أن تجري بكل ما أوتيت من قوة دائمًا لتحصّل (اللاشيء)..!

ظللت أفكر وأفكر، حتى سقطت فجأة وبدون مقدمات في نومٍ عميقٍ لذيذ لدقائق، قبل أن أستيقظ هلعًا على صوت صراخ الممرضة (هناء) سليطة اللسان، مخترقًا طبلة أذني مباشرة، مسببًا لي صمَمًا مؤقتًا، لتخبرني مولولة بأن هناك حادثًا جماعيًّا في الطريق ولا يوجد ما يكفي من الأطباء والممرضين وأنها ليلة سوداء على ما يبدو..

تحركت لأغسل وجهي وأستطلع الأمر، فوجدت نداء الـ (كود يلو

Code yellow

تتردد أصداؤه في جنبات المكان منذرًا بحادث جماعي، أو كارثة خارجية على وشك القدوم إلى مستشفانا الحكومي العريق..

(يا زين ما اختاروا)..

(هو بمزاجهم؟ ما إنت عارف إن معظم المصايب اللي بتحصل بتيجي ع الطابونة دي على طول)

كان هذا حوارًا رومانسيًّا قصيرًا بيني وبين هناء الممرضة، ما لبثت أن ختمته بمدحها والثناء عليها بكلمات رقيقة على غرار (يا فقر يا بومة) متمتمًا بها في سري ساخرًا، ثم ما لبثت أن قمت بإيقاظ من غلبه النوم من الزملاء الأطباء والممرضين -الذين لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، لنتجهز لشيءٍ لا نعرف ماهيَّتَه بَعدُ..

***

في الكوارث الطبيعية والنكبات عمومًا، يكون الذهول هو سيد الموقف..

بكاء وصراخ وألم.. وبحث دائم ممن نجا عن أهله وذويه، وتساؤله المتألم الجزع عن احتمالية نجاتهم..

تواردت سيارات الإسعاف، وكان الأمر أكبر مما تخيلنا..

"انهيار عقار على رأس قاطنيه.. لم نستطع حصر عدد الضحايا بَعدُ، لكن مَن يتم إخراجه من تحت الأنقاض ننقله إلى المستشفى فورًا."

هكذا أخبرني المسعِف لاهثًا وهو يدفع مصابًا إلى ركن الكريتيكال (الحالات الحرجة)، في حين تواردت علينا سياراتُ الإسعاف، لتفرغ ما في جوفها من مصابين، لتمتلئ بهم ساحة استقبال الطوارئ، لندرك أن الوضع أصعب مما تخيلنا، وبدأنا نتصل بزملائنا الأطباء والممرضين لنأتي بهم من بيوتهم في الثانية صباحًا، منهم من تكرم بالحضور.. ومنهم من لم يكلف نفسه حتى عناء الرد..

اعتدت شكل الدماء وصيحات الألم لكن الأعداد كبيرة، والذهول يكسو الملامح، وحالات الانهيار العصبي والصراخ المستمر مع عدم وجود أسرّة

شاغرة، وافتراش المصابين الأرض في الاستقبال، كل ذلك يجعل الأمر صعب الاحتمال، بل لا يطاق..

يفترش طبيب العظام السادي الأرض مربتًا على يد طفلة تبكي ولا تجد والديها، مضمدًا جراحها والدموع تلتمع في عينيه..

يتحرك د. ربيع ود. عامر لتصنيف المصابين، وتحديد من له الأولوية لتلقي المساعدة الطبية، من خلال مسح شامل وفحص مبدئي سريع لكل المصابين، وتنضم إليهما د.أمل بعينين منتفختين بعد أن انتزعها اتصال عامر من فراشها..

تتصبب الممرضة (هناء) سليطة اللسان عرقًا، وهي تتنقل بين الأسرة لتقديم المساعدة، وإعطاء المحاليل، والتنقل بين المعمل وغرفة الأشعة، حيث تراها تربت على كتف مصاب حينًا، صارخة في وجه زميلها الممرض أو العامل أحيانًا صراخ بلا سبب واضح، تدرك معه فورًا مدى توترها وإرهاقها..

صوت عجلات الترولي في الممر يتبعه صوت د.محمد تقارير يصيح لاهثًا منبهًا الجميع للابتعاد عن الطريق، راكبًا فوق صدر مريض متوقف القلب يجري له إنعاشًا قلبيًّا رئويًّا. CPR))

في حين يدفع رجال الإسعاف الترولي متوجهين بهما نحو غرفة الرعاية الحرجة.

"الأدوية تنفذ ولا يوجد حتى قفازات طبية كافية."

"لماذا لم تصل أكياس الدم بعد؟"

"ليستدع أحدكم طبيب المخ والأعصاب."

يصرخ الأطباء في وجه المنهارين نفسيًّا وعصبيًّا حتى يفيقوا من الصدمة، بينما يلطخ الدم المكان، بعد انهماك العمال في مساعدتنا في تضميد الجروح..

المصابون يصرخون من الألم، والناجون يصرخون غير مصدقين أنهم لتوِّهم فقدوا المأوي حيث أشياؤهم المحببة وذكرياتهم التي دفنت تحت الأنقاض..

كانت الدموع تغرق روحي.. هل هذا طبيعي؟!

أليس من المفترض أن يتم الاستعداد لمثل هذه الأمور بأفضل من ذلك؟

يخبرني الأطباء أن المستشفيات المجاورة ليست أفضل حالاً، ورأيت د. أحمد الفيومي، طبيب الباطنى المجتهد، والمهموم دائمًا، يسند ظهره بيده من شدة الإرهاق، فاحصًا جرحًا مفتوحًا لمريض بلا أي قفاز طبي.. بلا أي وقاية..!

راجعت في رأسي كل ما تعلمته.. التعامل في الحالات الطارئة.. مكافحة العدوى.. السلامة أولاً.. أمراض مناعية خطيرة أصابت أطباء بعد تعاملهم مع مريض يحمل المرض.

لكن.. ماذا نفعل؟!

أترانا لو علمنا أن مريضًا يحمل فيروسًا ما، وكانت حياته في خطرٍ، هل سنتركه ونذهب لنبحث عن قفازات طبية واهية تقلل من احتمالية انتقال العدوى ولا تمنعها؟!

معظم الحالات تحتاج إلى رعاية مكثفة ولا توجد أسرة كافية، وعدد غير قليل من الحالات يحتاج إلى غسيل كلوي، ولا توجد ماكينة غسيل واحدة في المستشفى.. هل يحدث هذا في أي بلدٍ؟!

هل يحدث هذا في البلاد النامية فقط؟!

كيف نغيِّر من هذا الواقع البائس.. كيف نغطي هذه الحقائق الفاضحة.. ومَن الملام؟!

أصوات تتعالى في الخارج، يتبعه صوت مميز أعرفه.. صوت د. محمود سامي ومعه عدد من الأطباء المتطوعين لمساعدة زملائهم الذين أنهكهم التعب، وبلغ منهم الإرهاق كل مبلغ..

والأجمل من ذلك إحضارهم لبعض الأدوية والأدوات الطبية.. حسنًا.. يبدو أن منصات التواصل الاجتماعي تؤدي عملاً جيدًا، وما زال لها أثر كبير..

كنت على وشك الانهيار، وكان هذا بصيص الأمل الذي ساعدني على

العودة للعمل بحماس وجد.. إن اجتماع بعض الأشخاص في مكانٍ واحدٍ قد يغير الكثير من الأحداث، ويحسِّن من مجريات الأمور بشكلٍ كبيرٍ..

"ماذا تفعل هنا.. تحرك، نحتاجك هناك"..

جاءني صوت ربيع منتشلاً إياي من دوامة عميقة.

نظرت له بيأس.. كنت مهزومًا أحاول تشجيع نفسي.. لن نستطيع أن ننقذ كل هولاء، تعلن حالات الوفاة كل عدة دقائق..

كأنه قد قرأ أفكاري.. هزني بشدة وجذبني من ذراعي قائلاً:

(أعرف، لكن لا وقت لهذا.. نحتاجك في الرعاية.. هيَّا)

وأردف ونحن نحث الخطى لغرفة الرعاية الحرجة:

(لا تستهلك طاقتك في التفكير بهذا الشكل.. ابذل أقصى ما تستطيع من جهدٍ لإنقاذ من يمكنك إنقاذه، لكن اليأس يستهلك الجهد والوقت، ولن يساعد المرضى).

دفع د.ربيع باب غرفة الرعاية بكتفه ومرفقه، دلفت وراءه لأجد ثلاثة من المرضى Arrested والأريستات هي حالات توقُّف القلب، لا بُدَّ أنكم تعرفون هذا الآن..

كان د.محمد تقارير يجري الإنعاش القلبي للمريض الأول، ود.عامر يجري إنعاشًا للمريضة الثانية وقد بدا عليهما الإرهاق الشديد، كما رأيت د.أحمد يقوم بإنعاش المريض الثالث..

ارتفع صوت د.ربيع معلنًا أننا سنقوم بالتبديل مع الأطباء الذين أصابهم التعب الشديد، وأصبح اعتصار قلوب المرضى بين قبضاتهم بغرض إعادتها للحياة أمرًا شاقًا عسيراً..

"بعد ال Cycle دي هبدل مع محمد، وإنت هتبدل مع عامر وحسام الممرض هيبدل مع د.أحمد، والحالات اللي هترد بمجرد ما حالتها تستقر هننقلها من هنا علشان نستقبل غيرهم"..

(يلا عند 3 هنعمل Switch

واحد اتنين تلاتة..)

انطلق كلٌّ منًّا لاتخاذ مكانه المتفق عليه، كانت بساطة ربيع وحزمه ومشاركته وليس إشرافه فقط من بعيد يثيرون دهشتي، لديه إمكانيات وصفات قيادية يجهلها، رغم أنه يمارسها بعفوية مطلقة.

وقف عامر متأهبًا، فطلب منه ربيع الخروج ورؤية ما يحدث بالخارج واعدًا إياه بأننا سنستدعيه وقت الحاجة، بحيث يخرج كلُّ مريض ويرسل ممرضًا أو ممرضة بدلاً منه للدعم هنا..

نظر إلينا د.عامر نظرة عجيبة بأنفاسٍ لاهثة وعيون مرهقة، ماسحًا غرفة الرعاية الحرجة بعينيه، قبل أن يخلع قفازه الطبي ويقذف به بعصبية مستهدفًا سلة المهملات، مندفعًا إلى الخارج بثورة مكتومة توشك على الخروج.

خيم علينا الصمت - إلا من الأصوات المنتظمة المعتاد سماعها أثناء ال CPR والناتجة عن اعتصار قلب المصاب والضغط عليه 5 سنتيمترات للأسفل على الأقل.

في حين دخل علينا د.مندور الإداري الشهير بمستشفانا العريق، والذي كان مكروهًا من الجميع لسبب وجيه، وهو أنه -ببساطة- متعالٍ وأحمق، فضلاً عن أنه فاسد..

قابلته مرات معدودة، نظر إليَّ فيها شذرًا وقلبَ شفتيه مشمئزًا وهو يأمرني بالكشف على أحد معارفه..

وقتها نظرتُ له ببلاهة، محاوِلاً توضيح أن هذا هو قِسمُ الاستقبال، وانخفاض الضغط قليلاً لا يجعل الحالة طارئة، ربما لم يتناول الرجل فطورَهُ، لكن الحالة مستقرة وتحتاج فقط للتوجه للعيادة، لتلقي العلاج..

نظر إليَّ نظرة طويلة، متفحصًا إياي بعينيه، قبل أن تقاطعنا هناء الممرضة ساحبة المريض معها بدعوى أنها (هتـــ Random المريض، وهتخلي د. أمجد باطني يبص عليه)

ثم أخذت المريض بالفعل لتحلل له نسبة السكر بالدم..

انصرفت لأتابع عملي مشَيعًا بنظراته المتوعدة، لأكتشف بعدها أن له مع كل طبيب في المستشفى موقف سيء مشابه، وقد قدَّم طبيبٌ من قَبل استقالته بسبب مشكلة مع هذا الـ (سالم)، تاركًا له المستشفى بل والبلد بأكمله، ليعمل في إحدى الدول العربية.

والآن يقف د.سالم السباعي في غرفة الرعاية الحرجة حيث لا الوقت ولا المكان مناسبين لمواقفه المستفزة..

(ساعة الوفاة: 4:30 صباحًا..)

قالها د.ربيع وهو يترك الحالة التي أيقن من وفاتها، وانضم إليَّ ليساعدني، وعاد د.عامر في تلك اللحظة مع طفل مريض أزرق وجهه وأوشك جهازه التنفسي على الانهيار..

(لن يدخل أحد آخر إلى هنا.. المكان مكتظ بالفعل.. فليذهبوا إلى مستشفيات أخرى)

تجاهلنا عبارة سالم، لا بُدَّ أن هذا الأحمق يمزح.. إذا خرج هذا الولد من هنا سيموت..

(تسمعني د.عامر؟؟)

الرد الوحيد الذي سيردُّه عامر الآن سيكون لفظًا نابيًا، أو صوتًا نابيًا، أو أي شيء أحمق يدمر مستقبله، وربما يودي به إلى السجن.

ردَّ د.ربيع بهدوءٍ:

- لو خرج هذا الولد من هنا سيموت.. رغم احترامي لتخصصك كطبيب أمراض نفسية وعصبية في الأساس لكني متأكد من أنك تدرك حجم الخطر الذي يحيق بالمريض.

-هكذا إذًا.. ما رأيكم بأنكم ستخرجون الآن من غرفة الرعاية، وسأستبدلكم حالاً..

ثم أردف باستفزاز:

-هناك حالتان قادمتان في الطريق من مستشفى صديقي د.لطفي، وهي حالات أملها في الشفاء أكبر من هذه الجثث التي تحاولون إعادتها للحياة، والتي لن تلبث أن تموت في النهاية لسبب أو لآخر، ولن يدفع أحد ثمن الأدوية التي تضيع في محاولاتكم لإعادتهم للحياة.. اتركوا ما بأيديكم واخرجوا فورًا..!

تكورت قبضة عامر، لكني لم أدرِ بنفسي إلا وأنا ألكمه في وجهه لكمات متتابعة، بقدر التعب والإرهاق واليأس والبؤس والفساد والواسطة وكل شيء يغتال روحي..

أغلق د.عامر باب غرفة الرعاية جيدًا ودفع سالم في ركنٍ محذرًا إياه من التنفس حتى بصوتٍ عالٍ حتى ننتهي مما نحن فيه..

ضاعت تحذيرات ربيع ومحاولاته للتهدئة وذهبت أدراج الرياح.. بينما انشغل بعلاج الولد حتى استقرت حالته، بينما سالم يهذي ويتوعد والدم يغرق وجهه.

لم أكن كبير الحجم أو قوي البنية.. لكن كنت متعبًا.. روحًا، وجسدًا..

وبعد أن تم إنقاذ الطفل، وعاد قلب حالة من الحالات الثلاث للعمل من جديد.. ارتميت على الأرض مدركًا أنني -ربما- قد أنهيت مستقبلي المهني بقبضتي هاته التي ما زلت أتأملها بذهول غير مصدق ما فعلت..

*** * ***

رحلة إلى أوغندا

تقرر إيقافي عن العمل لحين ظهور نتيجة التحقيق، وتوسط بعض الأطباء عند د.سالم الفاسد (كما اعتدت تسميته مؤخرًا)، وأخبروني بأنني ربما لو اعتذرت له وأبديت بعض الندم...

حسنًا لن أستمع إلى هذا الهراء، ولا أريد أن أمارس الطب إن كان هذا هو المقابل.. بالطبع لم يوجّه إليه لوم، فهو المدير ذو العلاقات الكثيرة والنفوذ الواسع.

جلست في بيتي مسترخيًا أخيرًا، فاتحًا حاسوبي المحمول متفقدًا بريدي الإلكتروني، لأجد رسالة من منظمة أيزيك AIESEC وهي منظمة تطوعية شهيرة للشباب

بها دعوة للتطوع موجهة إلى الأطباء في كل مكانٍ، هذا ما أحتاجه الآن، يجب أن يعرف هذا الـ (سالم) أنه ليس الكون ما تراه عيناه فقط.. سأسافر

لمدة ثلاثة أسابيع مع قافلة طبية، تاركًا ورائي كل ذلك الاشمئزاز من كل شيءٍ طاله الفساد في هذا البلد.

بعد عددٍ لا بأس به من الإجراءات الوقائية واللقاحات والأمصال سافرت أخيرًا إلى أوغندا.. كانت إجراءات ما قبل السفر غريبة ومعقدة، حيث يجب عليك اتباع كل الإجراءات الوقائية في حالات السفر إلى مناطق موبوءة بأمراض معدية.

بعد معاناة في الحصول على معلومات تفصيلية حول هذا الأمر توجهت إلى الإدارة العامة لمكافحة الملاريا بالوزارة، ومعي كل مستندات السفر وخطاب من منظمة أيزيك، ليتم تسليمي الجرعة الوقائية وهي عبارة عن أقراصٍ لا بُدَّ من تناولها قبل السفر بأسبوع على الأقل.

وبما أن أوغندا تعتبر من البلاد الموبوءة أيضًا بمرض الالتهاب السحائي، كان لا بُدَّ من حصولي على تطعيم ضد المرض والأهم من ذلك هو شهادة تفيد بذلك.

كذلك مررت بسلسلة طويلة من التطعيمات الوقائية للتحصين ضد التهاب الكبد، والتيفود والحمى الصفراء.. ولسوء الحظ لا يوجد تحصين من فيروس نقص المناعة البشري (الإيدز)، HIV

حيث هو الأشهر في أوغندا..

أخبرني عامر بأنني مجنون، أما ربيع فقد أمطرني بوابل من النصائح العملية كعادته:

"ارتدِ ملابس بأكمام وأرجل طويلة."

"تجنب التواجد في الأماكن المفتوحة بعد غروب الشمس"

"عليك بدهان كل سنتيمتر يظهر من جسدك بدهان طارد للبعوض"

"لا تنسَ رش مكان المعيشة بمبيد حشري قوي"

أضاف عامر:

"انس أمر العطور أيها الفتى الأنيق، المواد العطرة تجذب البعوض والحشرات."

"لا تنم في مكان مفتوح وإلا ستأكلك الحشرات حيًّا، وكذلك تجنب الأماكن المزدحمة سيئة التهوية، واحترس لطعامك يا فتى.. لا طعام مكشوف، ولا مأكولات مجهولة الهوية.. ولا تنسَ أن تغلي الماء جيدًا قبل شُربِه".

أما محمود سامي فقد اكتفى برسالة مقتضبة عبر الواتساب قال فيها:

"احرص على أن تبقى حيًّا"

وبعد أن ودعت أسرتي القلقة، مصممًا على عدم اصطحاب أحد منهم معي إلى المطار، حزمت حقائبي وذهبت إلى المطار بأحاسيس مختلطة.. قلق.. حماس.. فضول.. شيء من الحنين لوطن لن يغادرني يومًا وإن غادرته..

غريبٌ أمر أوطاننا.. تقسو علينا وتطردنا بكل شكل، ثم إذا فاض بنا الكيل وغادرنا تتشبث بأرواحنا، فلا تدعنا نتذوق طعم راحة بداخلها ولا بخارجها.. حيث القاعدة هي:

"ابقَ بداخل وطنك واستمتع بمشاهدة روحك تموت، أو غادره وراقب روحك تذبل، مهما ازدهر مستقبلك"

آثرت أن أوقف كل هذه الدراما برأسي، مذكرًا إيَّاي بأن فترة السفر تتراوح بين أسبوعين وشهر، ولن تزيد على ذلك بأية حال.

وقبل أن تقلع الطائرة متوجهة من مطار القاهرة مغادرة إلى مطار عنتيبي الدولي.

(Entebbe Airport)

بكامبالا عاصمة أوغندا.. وخلال أكثر من عشر ساعات، هي رحلة الطيران بين القاهرة وكامبالا، استعدت برأسي ما كنت قد قرأته عن أوغندا من قبل..

أوغندا.. لؤلؤة أفريقيا كما يسميها البعض.. مساحتها 236 ألف كم.. عاصمتها كمبالا..

اللغة الرسمية هي الإنجليزية، وهناك لغات أخرى شائعة مثل السواحلية والبانتو وعدد آخر من اللغات المحلية التي نسيت أسماءها

بمجرد قراءتها، ولولا كون اللغة السواحلية والبانتو مألوفتين بالنسبة لي، بسبب القراءة عنهما في كتابات د.أحمد خالد توفيق رحمه الله لما تذكرتهما من الأساس.

حسنًا.. ماذا أيضًا؟!

الديانة الرسمية.. المسيحية.. ويوجد عدد كبير من المسلمين حوالي 20% من السكان وهي الديانة الثانية الأكثر انتشارًا هنا خاصة في شرق أوغندا، كما يوجد عددٌ من الأديان والعقائد المختلفة بالإضافة إلى الأديان المحلية.

السكان طيبون جدًّا ومتعاونون، والمناخ استوائي.. من حُسنِ الحظ أنني سافرت في يناير، حيث المناخ دافئ.. جيدٌ.. كنت سأبدو أحمقَ لو أحضرت ملابسي الثقيلة معي من القاهرة، وأحمد الله أنني قرأت وسألت عن المناخ في المجموعات الشهيرة الخاصة بالسفر عبر فيسبوك.

Travel Experience group

و

Travel secrets group

وقد كفّى القوم ووفّوا وسردوا كمًّا هائلاً من المعلومات والخبرات الشخصية المفيدة، والطريفة أحيانًا..

عرفت أن الجو يكون باردًا جدًّا في أغسطس، وأن المطر لا علاقة له بدرجة الحرارة فهو مستمر طوال العام.

هبطنا أخيراً وبعد رحلة طويلة إلى مطار عنتيبي أو (إينتيبي) كما يحلو للبعض تسميته، وكان بانتظاري بالمطار الشاب الأوغندي (محمد بامبالانا)، الذي عينته المنظمة لاستقبالي واصطحابي، والذي أصبح صديقي بعد ذلك.

كانت الأمطار تهطل بغزارة، اقترحت على محمد أن ننتظر بالمطار لحين توقف المطر، لكنه أخبرني أننا قد ننتظر لساعات طويلة والأفضل أن نتحرك فورًا من المطار إلى العاصمة كمبالا..

وأخبرني كذلك أنه كان يريدني أن أجرب المواصلة الأشهر في أوغندا الـ (بودا بودا)، لكنه يرى أنني مرهق بعد سفر طويل؛ لذلك استوقف تاكسي، وبعد جدال طويل عن الأجرة مع السائق انطلقنا إلى المنزل الذي سأقيم به..

وفي الطريق سألته ما هو (بودا بودا) فأشار مبتسمًا إلى الدراجات البخارية التي تمر بجوارنا وقال:

- هل ترى هذه الدراجات البخارية هناك؟! إنها هي البودا بودا.. وسيلة المواصلات الأشهر في أوغندا، وعلى متن هذه الدراجة النارية يكتشف الأجانب أزقة العاصمة الأوغندية المكتظة.. ستجربها غدا وستستمتع كثيراً.. أعدك..

وعندما وصلت إلى مكان المبيت، وألقيت بجسدي المنهك من الرحلة الطويلة على السرير.. لم أكن أعلم أنني على موعدٍ في الأيام التالية مع تجربة فريدة في بلد غريب، وكذلك لم أكن أعلم بأنني على موعدٍ مع (ريما).. حب حياتي..

***

هل جربت يومًا أن تكون بائسًا، تعيش حياة متواضعة بائسة، وتعالج المرضى في ظروف غير مناسبة لدرجة أنك ترى الأمر برمته غير آدمي، ثم تسافر إلى مكانٍ آخر بعيد، فقط لتكتشف أن ما كنت تعيش فيه من بؤس يعتبر رفاهية وتدللًا بالنسبة لما تراه من خشونة الحياة وشظف العيش والفقر وتفشي الأمراض؟!

حسنًا.. هذا ما حدث لي بالضبط..

انضممت للفريق الطبي الذي سيقوم بحملة الإغاثة والعلاج، وهم أطباء وممرضون من كافة أنحاء العالم.. تعارفنا..

د.محمود رعد.. العراقي البسيط حسن الخلق.. د.محمد الفلسطيني.. د.تامر من السودان، د.هنري الفرنسي الذي يذكرني بشخصية د. بارتلييه في سلسلة (سافاري) رائعة الغريب.. الحاضر الغائب د.أحمد خالد توفيق.

وأيضًا د.إسراء التونسية.. و د.ريما.. أجمل وأرق من رأت عيناي..

تنحنح د.بارتلييه أأ.. أقصد د. هنري قائلاً:

وفقًا لمنظمة الصحة العالمية، فإن الأسباب الرئيسية للوفاة في أوغندا

تشمل الأمراض المعدية مثل فيروس نقص المناعة البشرية / (الإيدز)، والملاريا، والتهابات الجهاز التنفسي ومرض الإسهال.

أما عوامل الخطر الأكثر مسؤولية عن الوفاة -وأحيانًا الإعاقة- سوء تغذية الأطفال والأمهات، والنشاط الجنسي غير المحمي، والمياه الملوثة، وسوء الصرف الصحي، وتلوث الهواء.

صمت برهة ثم أردف:

- نحن في دولة من أفقر دول العالم الثالث يا سادة، ولا يزال سيناريو الرعاية الصحية مخيبًا للآمال وكثيرًا ما لا يحصل كثير من الناس على العلاج المناسب عند الحاجة..

كمتطوع، سيتم وضعك في مركز للرعاية الصحية يحتوي على أكثر من 140 سريرًا ويوفر فرصًا في العمل في أقسام الأشعة، طب الأسنان، طب الأطفال، الجراحة، الأمومة، العيادات الخارجية والأقسام الأخرى، كل حسب تخصصه، و سيستمر العمل ما بين 6-4 ساعات في اليوم ويمكن تمديده في حالات الطوارئ، أما في عطلة نهاية الأسبوع، قد تكون هناك مخيمات للرعاية الصحية المجتمعية أيضًا، وهي لا تقل أهمية عن العمل في المستشفى.

في الأيام الأولى كنت لا أكاد أصدق ما أرى!

أمراض وأوبئة مميتة متفشية ومنتشرة بين الكبار والصغار..

- مساكين ! هل تعرف أن نسب وفيات الأطفال هنا مرتفعة جدًّا 300 طفل يوميًّا يموتون في أوغندا فقط؟! معظم الأطفال لا يعيشون لرؤية عيد ميلادهم الخامس..

هتفت (ريما) بالعبارة بينما كانت منهمكة بربط شريط أحمر بالصنبور..

أومأت برأسي موافقًا، وسألتها:

- ماذا تفعلين؟!

- أربط شريطا أحمر حول الصنابير، لأذكِّر نفسي وزملائي بتجنب الشرب من مياه الصنبور قبل غليها..

ضحكت متعجبًا فأردفت:

- الأمر جاد، وتذكر أن تغلق فمك أثناء الاستحمام.. لا تعلم أبدًا كمّ الفيروسات والأوبئة الموجودة في المياه.

تعلمت من ريما الكثير في الأيام التالية، كما تعلمت من كل شخص آخر..

علمت أنها فقدت أهلها جميعًا في سوريا، ورغم ذلك لم تتوانَ أبدًا عن تقديم المساعدة لمنكوبين في بلدٍ آخر.. مَن الذي قال إن فاقدَ الشيء لا يعطيه؟! فاقد الشيء يعطيه وبشدة!

في تلك الفترة القصيرة، تعاملت مع أكبر عددٍ من الأطفال الأيتام في حياتي..

"ثمانية مليون يتيم على الأقل بأوغندا.. دُمرت عائلاتهم بسبب فيروس نقص المناعة (الإيدز)، وإما بسبب الفقر المدقع وسوء التغذية، وإما بسبب الاضطرابات السياسية."

قالتها د. إسراء بمرارة مخبرة إياي بأن حتى من ينجو من هؤلاء الأطفال فإن الكثير منهم لا يحظون بفرصة التعليم، كما أن كثيراً منهم يتعرضون للعنف، ولا أمل لديهم في مستقبل أفضل.

"هناك الكثير جدًّا من الألم والبؤس في هذا العالم"..

هكذا حدَّثتُ نفسي وأنا في الطائرة عائدًا من مغامرتي الفريدة في أوغندا، بعد أن وعدت الجميع بالعودة مرة أخرى إلى أوغندا كل ستة أشهر.

لا تضايقوني أكثر بالسؤال عن ريما.. قالت إن حياتها هناك.. في أوغندا، في عالم منكوب يشبه عالمها، وما تدري أن العوالم كثيراً ما تتشابه.

رفضت برقة متناهية أن تأتي معي لمصر، كما رفضت أنا أن أبقى في أوغندا لوقت أطول فلديّ شيء مهم عزمت عليه، وأنوي تنفيذه.

لذا فدعنا -عزيزي القارئ- نعتبر ريما.. حلمًا مؤجلاً آخر.

* * *

التقيت بكل من د. سامي ود.ربيع ود.عامر الذي أتى بصحبة د.أمل في ذلك المقهى الأنيق القريب من المستشفى، وبعد الحديث عن تجربتي الفريدة، أو مغامرتي الطائشة كما يحلو لهم تسميتها، أخرجت لهم بدون مقدمات ملفًا ووضعته أمامهم ليقرأوه..

حسنًا.. دعونا نقترب ونلقي نظرة:

الشروط الكاملة للحصول على ترخيص المستشفى الخاص، وذلك حسبما أعلنت وزارة الصحة والسكان، من خلال الإدارة المركزية للتراخيص والعلاج الحر.

وتشمل الأوراق المطلوبة والاشتراطات اللازمة لتراخيص المستشفيات الخاصة، ما يلي:

1- صورة من عقد الملكية للمنشأة، ورسم هندسي للمستشفى.

2- تقديم بيان بالتخصصات المزمع مزاولة المستشفى لها.

3- خطة محددة لتطبيق مكافحة العدوى.

4- التعهد بالالتزام بتنفيذ الاشتراطات الصحية والفنية للمستشفى.

5- إقرار من صاحب المستشفى بأنه يشغل مبنى مستقلاً وله مدخل خاص غير مشترك مع سكان العقار.

6- تقديم شهادة تسجيل في النقابة مستوفاة الدمغة للمستشفى.

7- إيصال سداد الدمغة الطبية للمستشفى بواقع واحد في الألف من رأس مال المستشفى.

8- تقديم ما يفيد التعاقد مع محرقة للنفايات الطبية.

9- يشترط ألّا يقل عدد الأسرّة عن 15 سريرًا.

10- فصل العيادات الخارجية عن مبنى المستشفى.

بنظرات متسائلة حدَّق فيَّ كل منهم محاولين استيعاب ما أحاول قوله..

- سنقوم بإنشاء مستشفانا الخاص.. وسنبدأ من التجهيز لذلك من اليوم.

انطلقت بحماس أشرح لهم فكرتي، وأن الأمر ليس صعبا كما يبدو.. سوف نضم إلينا من يشبهنا، ومن نتوسم فيه خيراً من الأطباء، ثم ليجمع كل منا ما يستطيعه من مال، وربما احتجنا لدعم إحدى المؤسسات الخيرية، في النهاية هي مجرد خطوات محددة بعدها يتحقق الحلم.

- أنت مجنون، هل تدرك ما تقول؟!

- من قال حتى أننا نريد ذلك، سنفتح على أنفسنا أبواب الجحيم لو فكرنا حتى في تنفيذ مثل هذه الفكرة.

- لم تفتتح لنفسك عيادة خاصة، وتريد أن تقوم بفتح مستشفى خاص بالكامل، بأقسامها وعياداتها الخارجية واستقبالها و...

قاطعت كلماتهم المشجعة ورسائلهم الإيجابية قائلاً:

- اهدأوا.. أعرف أن الفكرة مفزعة، قد تكون صعبة التنفيذ بالفعل لكن تنفيذها ليس مستحيلاً.

(I am In)

كانت هذه هي أمل بردة فعل مفاجئة، دائما ما تدهشني تلك الفتاة.

أردفت بهدوء:

- أعرف شخصا يدير مؤسسة خيرية، ونقديم الخدمات الطبية على رأس أولوياته.. هو قريبٌ لي ولا أظنه سيمانع في الانضمام إلينا وتقديم الدعم اللازم..

-نعم.. أول الغيث قطرة.

نظر ربيع ومحمود وعامر إلينا كمن ينظر إلى مجنون فقد عقله.. وبعد ساعات من المناقشة والأخذ والرد والمكالمات الهاتفية بدأت الصورة تتضح..

لن يكون الأمر سهلاً.. لكنه لن يكون مستحيلاً كذلك..

❋ ❋ ❋

تدور الأيام وتجري الأحداث بسرعة، لذا سأحكي لكم بسرعة ما فاتكم في الفترة الأخيرة التي انقطعت فيها عن الكتابة..

جرت الاستعدادات لافتتاح المستشفى، بعد عقبات كثيرة ،وتضحيات أكثر..

بيع ربيع لشقته التي كان سيتزوج بها.. تأجيل زواج عامر وأمل.. وأخيرا وجد د.محمود سامي ممولا للمشروع بالمبلغ المتبقي..

كانت سعادتنا غامرة، وبلغنا أن الحقد يتأجج بصدر سالم، بسبب تحدينا له كما يدعي، وبسبب انتصار الخير على الشر والضمير على الفساد كما نقول نحن.

وبعد استكمال تراخيص المستشفى وتجهيز الأقسام بما تحتاجه من أجهزة وأسرة، أصبح تحقيق الحلم قاب قوسين أو أدنى..

راسلت ريما مبشرًا إياها بالحدث السعيد، وقد عاهدتها على أن أتصل بها عبر مكالمة مرئية Video call لتكون حاضرة معنا خطوة بخطوة..

انضم إلينا في طاقم المستشفى الجديد الممرضة هناء سليطة اللسان - والتي يبدو أنها قدري الذي لا مفر منه-، وأيضًا طبيب العظام السادي - د.يوسف جورج والذي اتضح أنه من ألطف الأشخاص الذين قد تقابلهم بحياتك..

كانت الأجواء احتفالية والبهجة تعم المكان، حتى وردَّ د.ربيع هذا الاتصال، الذي غيَّر مجريات الأمور:

"قرار بسحب وإلغاء ترخيص المستشفى، وذلك لمخالفته للمادة 13 من القانون رقم 51 لسنة 1981 والمعدل بالقانون رقم 153 لسنة 2004 بشأن تنظيم العمل بالمنشأت الطبية غير الحكومية."

وهبطت قلوبنا بين أقدامنا، وسقطنا في هوة سحيقة..

جاءت مكيدة سالم في وقت قاتل بحق..

ترى هل أخطأت بعودتي من أوغندا؟!

❊ ❊ ❊

أغلق د.ربيع الكتاب، ونظر إليَّ متطلعا إلى لحيتي النامية قليلاً كالمساجين، وشعري المشعث، وقال معاتبًا:

- لماذا كتبت في نهاية القصة أن الطبيب اختار أن يسافر مخلفًا كل شيء وراءه، رغم أنه ما زال هنا، يحاول ويأمل أن تتغير الأشياء إلى الأفضل يومًا ما؟!

ألقيت بجسدي على الأريكة، وزفرت قائلاً بمرارة:

- أردت أن أنقذ أحدهم.. لربما تأثر شخص واحد بالقصة فأنقذ نفسه، وسافر هاربًا لمستقبل أفضل في إحدى دول أوروبا أو في أي دولة أخرى بعيدة عن الفساد والرشوة والمحسوبية، وبؤس الحال وتواضع الإمكانيات، وحقوق الأطباء المهدورة.. يموت الأطباء يوميًّا يا صديقي.. يتساقطون موتى في غرف العمليات، أو من الإرهاق المتواصل وضغوط العمل، أو حتى من البلطجة في أقسام الاستقبال، حالنا مزر، ولا أمل يبدو في الأفق..

ابتسم ربيع بإشفاق قائلاً:

- الفساد والرشوة والمحسوبية في كل مكان، تعرف هذا جيدا.. المدينة الفاضلة محض خيال.

حدجته بنظرة نارية مستنكرة، فأردف بسرعة:

- أعترف أن الأمر زائدٌ عن الحد هنا، أعرف أن أمثال سالم هم من ينتصرون، ولذلك لا نتقدم ولا نتطور، ولكن..

هلا تخيلت معي كيف سيكون الوضع لو سافرنا جميعًا، وترك كلٌّ منا وراءه عائلة وذكريات، ومرضى مساكين، نساعدهم ونخفف عنهم ما يجدونه من آلام قدر الإمكان؟!

هل نتركهم ليتحكم بهم (سالم) وأمثاله؟!

هل سنكون وقتها سعداء.؟!

أنا معك في أن الإغراء كبير.. إذا سافر الطبيب سيعيش ويعمل في مكانٍ راقٍ ومنظم، حيث أفضل وأحدث المعدات والنظم الطبية، أو سافر لينقذ آلاف الأطفال في بلد بائس مليء بالأوبئة، لكن.. ليس الأمر وردي دائمًا..

إذا سافرت ستكون ترسًا في آلة، أما إذا مكثت هنا فستكون أنت الآلة نفسها..

تعالج المرضى وتساعد من يحتاج مساعدتك، وتحث الجميع على أن يكونوا المجتمع الذي تريده أن يكون.. ترضى وتفرح بتحقيق أحلامك البسيطة، على حساب أحلامك الكبيرة المؤجلة، التي ستتحقق يومًا..

أطرق برأسه مع جملته الأخيرة.. شعرت أنه يوجه الكلام إلى نفسه مواسيًا إياها، فأطرقت بدوري..

مرَّ أمامي كل ما مررنا به كشريط لا يكاد ينتهي إلا ويبدأ من جديد.. أيامي الأولى كطبيب.. أيامي في المستشفى.. أوغندا.. حلم المستشفى الخاص (التعليمي) الذي يحتوي الأطباء والممرضين وحتى العمال، يعلمهم ويدربهم أطباء مخلصون يرتقون بهم ويشرحون لهم حجم المسؤولية.. يعالجون متوسطي ومحدودي الدخل بأسعار معقولة تناسب ظروفهم الاقتصادية الطاحنة..

ذهبت أحلامنا كأن لم تكن.. ذهبت أدراج الرياح، وما زال ربيع مغرق في مثاليته، وما زال محمود يحاول أن يكون متفائلاً، رغم سخريته المريرة من كل شيء..

رفعت رأسي إلى ربيع الذي أسند رأسه بكفيه كأنها تزن ألف ألف طن، وتوشك أن تسقط من على جسده قائلاً:

- لماذا لم تسافر؟!

ابتسم ابتسامته البسيطة المعتادة وقال:

- عهد قطعته على نفسي فيما مضى، أن أساعد أحدهم مساعدة قد يصاحبه أثرها طوال العمر، سواء كان مريضًا، أو زميلاً، أو حتى طالبًا..

- لمن؟!

- لنفسي أولاً.. ولأستاذي رحمه الله.. أحمل له في قلبي امتنانًا لا ينتهي.. تعرف؟

في أصعب المواقف التي تواجهني، أدعو الله موقنًا بأنه لن يخذلني، ولن يخيب رجائي، أن يلجأوا لأي مستشفى حكومي، ما أتى بهم إلا الألم والمعاناة، والحاجة إلى المساعدة والعلاج -، أشعر أن دعاءهم الصادق يصاحبني، وأن الله معي دائمًا يبعد عني كل شر، ويصب على من كل خير..

بتردد قلت:

- لكن الطموح..

قاطعني ضاحكًا:

- الطموح ليس عيبًا.. نعم.. وأنا طموحي هنا، وأقوم بتحقيقه بالفعل.. ابحث أنت عن طموحك وسعادتك واتبعهم حتى آخر العالم.

ثم نهض وهو يقول:

- قد يرى البعض ما أقوله مثاليًا أكثر من اللازم أو حتى ساذجًا، لكن الحياة اختيار وكل منا يصنع حياته بنفسه، واختياراتنا تمثلنا وتجعلنا ما نحن عليه في النهاية.

رن جرس هاتف ربيع، وكان المتصل هو محمود سامي بنفسه، لم أكن في مزاج مناسب لتلقي المزيد من الأخبار السيئة، فأشحت بوجهي وتشاغلت بالعبث بهاتفي، لكن..

صوت ربيع يعلو ويمتلئ حبورًا.. ماذا تقول؟! وما علاقة نائب مجلس الشعب بالأمر؟!

هل أنت متأكد؟! محمود.. استنفدنا كل الوسائل، وحاولنا بكل الطرق لإنجاح الأمر.. لن نتحمل إحباطًا آخر.. نعم صدقت.. لن نخسر شيئًا.. حسنًا، سنبقى على تواصل.. مع السلامة..

ثم نظر إليّ مبتسما ابتسامته البسيطة المعهودة:

- يبدو أن لدينا فرصة أخرى لإنجاح الأمر.. لدينا موعد مع عضو مجلس الشعب عن الدائرة التي تقع فيها المستشفى، حكى له محمود القصة بأكملها، وتحمس الرجل واقتنع بالأمر، لن يخلو الأمر بالطبع من بعض الصعوبات، لكن محمود يؤكد لي أن الرجل يستطيع تسوية الأمر، خاصة وأن البلاغ الذي تم تقديمه لسحب الترخيص كان بلاغًا كيديًّا، والآن انهض واغتسل وأفق، ولتخرج من دور السجين هذا، فلدينا موعد، سيتوقف عليه مصير المستشفى بأكمله..

* * *

(بعد ثلاثة أسابيع)

الآن أضاءت شموع السعادة في عينيك يا فتى.. لا تظن أن الحياة تمشي دائمًا على نمط واحد، فهكذا الحياة، عسر ثم يسر، أوقات حزينة صعبة، وأخرى سعيدة حالمة..

انطلق، واعمل بكل ما أوتيت من جهد..

اتبع حلمك أيها الطبيب المشاغب المثير للمشاكل..

اختلطت كلمات د. ربيع بكلمات د.محمود برأسي، وقد أسكرتني السعادة، وصرت أقفز جذلا كالأطفال صبيحة يوم افتتاح المستشفى.. مستشفى (إنسان).. هكذا سميناها، ليصير فيها الإنسان إنسانًا، ويعامل كذلك..

وبابتسامة مشرقة نظرت إلى مرآتي بسعادة مبتسمًا غامزًا لنفسي محييًا إياها.. ترى هل ابتسمت لي الحياة أخيراً؟!

ترى هل توافق ريما على الانتقال أخيراً إلى مصر؟!

ترى هل تزهر الدنيا وتشرق شمسنا من جديد؟!

قرأت عبارتي الأثيرة المحببة إلى نفسي، والمطبوعة على لوح خشبي صغير على الحائط:

" لك حلـــــم فـــي هذا العالـــــــم.. فقـــــــــم!"

تمـــت

شيماء محمود إبراهيم

نوفمبر 2019

للتواصل مع الكاتبة :

بريد الكتروني:

sh-m-e83@yahoo.com

فيسبوك:

https://www.facebook.com/Shaimaamahmoud83